لطافـــة الحس

للكاتبة الفاضلة (الزهرة)

سألتها وقد جاءت من الدنيا الجديدة فى سياحتها الصحفية الأولى ، إلى أرض الفراعنة الغر الياميين عن أول ما لفت نظارها ؟ فقالت فى صراحة القلب وذكائه ، حين يخاطب قلبا يستمد حياته من دقة الحس ورقة الشعور : شيئان استرعيا اهتمامى يا صديقتى فور أن ضمنى واديكم الخصيب : الشيخوخة التى تعاجل الشباب عندكم عامة ، والفتيات خاصة ، ثم الافتقار إلى شئ من لطافة الحس ، والدقة فى الرقة رغم الحلاوة التى أروى الليل بها شمائلكم ، والسماحة التى أدرها لغرائزكم ، والصفاء الذى أجراه فى طبعكم ، واللطف الذى مزج به أرواحكم ، والاعتدال الذى سوغه لأمزجتكم »

فابتسمت فى حسرة يخالجها الأسف ، ولا يحدوها إلا امتعاض من تلقى النبأ الصحيح على حقه ، وتستمع للمقال الصريح على صدقه . . ورويت قليلا وكررت بذاكرتى إلى القرون التى خلت ، ولا أدرى لماذا رفعت وجهى إلى صاحبتى وعاجلتها بذكر نتف من عبقرية (أحمد بن أبى دؤاد » العربى الأيادى ، وقلت لها إن « أبا العيناء (وهو أبو عبد الله محمد بن القاسم) الضرير ، صفيه وخدينه (وكان من ظرفاء العالم — كثيرا ما كان يقول عنه : « ما خرجت من عنده يوما قط فقال يا غلام : حذ بيده ، بل قال : يا غلام اخرج معه ا وكنت أنتقد هذه الكلمة عليه ، فلا يخل بها ولا أسمعها من غيره » . قلت تأملها كلمة ما يعرف فى ألفاظ الناس أرق منها دلالة على يقظة القلب ولطافة الحس . ولعل غيره من الناس لو أراد أن يوجه أمثال أبى العيناء إلى طريق الخروج لناله مس من الأذى أليم ورهق من الضر وجيم »

* * *

وعمر الأهوام ، وأذكر قريبى الذى جاءنى مساء اليوم وكان مضطربا متألما ، ولهذا القريب مسطحات أنيقة من المساكن والعمائر التى أقامها للايجار ، وأنشأ لمؤاجريه فى مؤخرتها أفنية فسيحة جميلة يستخدمونها لمنافعهم الخاصة ، وكان أحدها مرجع ما لحقه عليه من الانزعاج والتأثر ، قبل أن وافانى بأربع ساعات. وتفصيل الأمر أنه كان قد وجه عزعته على قضاء ساعتين فى تنظيم مجموعة من الطرف الفنية التى يعتز بها . وما إن شرع فى استعراضها ، حتى دق جرس التليفون ، وإذا بصوت قاصف ينادبه من الناحية الأخرى قائلا : « إنى على أثر قيامى بتعليق قطعة من الملابس على حبل الغسيل الذى مددته لنا فى فنائك المعجب.. قد . آف . . فأنا الآن أوشك أن أقل من الغضب ، وأعزم من الحنق عليك وأريد أن أندمك على تصميماتك المعمارية المؤذية ، وأطالبك بالعطل والأضرار — »

ولم يستطع الرجل الدهش أن يهتدى إلى الداعى الذى يصل بين غسيل السيدة الشاكية وبين ثورتها الحاضرة عليه ، ولكنها تابعت كلامها قائلة : « أحسست فى هذا الصباح تعبا بعد الحفلة التى أقمتها فى بيتى عشية أمس ، فرأيت أن أخرج إلى فنائك العجيب وأقوم بغسل قطع من الثياب ، وخرجت فى ردائى الفضفاض الحريرى : زخرف الرقيقين المصنوعين من فاخر الديباج ، وإنى لأحس الآن الرطوبة تقرس رجلى ، وأتأفف من أوضارها التى أصابت ذيل ردائى الثمين الجديد ، وكل هذه المصائب جرها على هذا الفناء الوبيل الذى أقمته لسنا كبى عمائرك.. وعليك أن تسارع اليوم إلى اتخاذ مايلزم لإصلاح الشأن وإلا.. » ثم صفعت بعنف سماعة التليفون . وتنهد قريبى بعد أن فرغ من سرد قصته وقال : « لقد أصبح الناس فى هذا الزمن زعقين وعقين ، سريعين إلى الحدة وإبداء الشعور بالمسافهة والوعيد ، ولم يخطر لهم ببال أن يقدروا ما يبذله لهم الآخرون من العناية والرعاية » . قلت : « ومع ذلك فلا تزال دنيانا العتيقة ، تحتفظ

بقية صالحة من ذوى العواطف الرقيقة والأخلاق الراقية والذوق السليم والصدر الرحيب والذهن المرهف . فقد تلقيت فى هذا الصباح خطابا من صديقة عزيزة ، تقيم فى بعض بلاد الأدغال الذاهبة فى أحضان العزلة والانفراد . وإنى لأجد فى خطابها مصاديق جلية ، تدل على أن الفؤاد الشهم الحى اليقظ ، لا يزال ينبض فى جوانح بنى الإنسان . فصاحبة هذا الخطاب سيدة شابة حسناء ، نزحت مع زوجها وصغيرها إلى تلك الربوع البدائية البكر ، فاستأنست إلى سكانها العتاة المتوعرين المحربين وخبرت أهواءهم ، وسبرت أحوالهم وعاشت معهم ، وتعاونت مع زوجها الطبيب « البيكتريولوجى » على إنشاء مستشفى صغير لهم وزارهما منذ شهور رحالة عالمى ، وقال لصديقتى : « إنك فى حاجة إلى بقرة حلوب هنا » . وبعد أن عاد إلى موطنه بعث إليهما حوالة مالية قيمة لشراء البقرة الحلوب ، ولاقتناء ثور أصيل . وختمت الصديقة خطابها بقولها إن هذا الرحالة العظيم ممن يسرون إلى صدق العهد فى ضياء الرشد . فقد تعهد كل حاجة من حاجتنا ببصيرة نافذة وتفكر دقيق وبسط علينا جناح حدبه »

هذا وقد أتيح لى التشرف بلقاء ذلك الرحالة الخير فى أوائل شتاء عامنا الحاضر ، وإذ كنت أتحدث إليه ، تألقت من فيه حكمة عالية ، هذا نصها :

« ليكن لنا إيمان وثيق بالله ، ولنذكر أننا أفراد أسرة كبيرة واحدة ، فلننظر دائما إلى السماء » إن هذا الرجل يرفع بصره إلى العلاء ، ويجتلى صفحة السماء على الولاء ، وينظر بمجامع عينيه إلى نقطة الدائرة حيث ينتهى كل موجود ، وهو لذلك يمرأى دائم من الله جل جلاله ، وإنه ليلقاه هناك ويعاينه وهو تعالى بالمكان الذى لا تراه الطوارف . يراه لأنه يرفع إليه بصره ويصوبه بعيدا عن ذاته فلا يراها . ولا عجب فإن إنسانا ما لن يستطيع أن يرمق ببصره اتجاهين متضادين فى وقت واحد .. أمفهومة فكرتى ؟ أقصد أن أقول إننا بمقدار تنحينا عن ذواتنا نستطيع أن نجاور الله عز وجل ونقوى على الاتجاه نحوه والتوجه إليه بالبصر والبصيرة ونكون بمنزح عن الأثرة وعبادة الذات ، ونتسامى إلى ذروة الكمال الأخلاق الممكن ، ونصل إلى الله وليس وراء الله مرمى ولا مرق . ومعلوم أن النظرة المرتقية إلى الفوق الأعلى هى التى تجعل الناس ذوى نفوس حساسة ، وبصيرة نافذة ، ينظر إلى حاجات الغير من وراء ستر رقيق ، وتستنبطون خلجات القلوب ، كما يستخرج الكشاف الدؤوب ودائع الغيوب ، تسافر صلاتهم وهم دانون لم يبرحوا . ويفاجؤون بالنوال الواسع والغوث السابغ ، ويعقون بالنجدة على منية المتمنى

وهنا أسأل لماذا لا نرتفع بأفكارنا إلى الله ، ولم لا نروض ذواتنا على ذلك منذ الساعة ؟ إننا إن فعلنا ندرع بحياتنا اغتباطا ، ونستأنف لمزاولتها نشاطا عجيبا مبدعا ، ونجعل وجودها ألطف من نسيم الشمال على أديم الظلال

الزهرة

للأستاذ أحمد حسن الزيات بك

يؤرخ الأدب العربى من عصر الجاهلية إلى هذا العصر ، بأسلوب قوى ، واستيعاب موجز ، وتحليل مفصل ، واختيار موفق ، ومقارنة بين الأدب العربى والآداب الأخرى

طبع إحدى عشر مرة فى ٥٢٥ صفحة

وثمنه أربعون قرشاً عدا أجرة البريد